(٤٩) سليمان عليه السلام

نموذج باهر للشكر والشاكرين

ومثل يحتذى به للتواضع والمتواضعين

يقول تعالى فى سورة النمل :

* ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ [النمل: ١٧ - ١٩].

* سليمان عليه السلام .. كان نبياً ورسولاً وملكاً، وكذلك كان أبوه داود عليه السلام ومُلْك داود وسليمان لم يكن مُلْكاً عادياً فكما جاء فى سورة النمل على لسان سليمان عليه السلام قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ [النمل: ١٦]. وتأمل قوله تعالى: ﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ مثلما قال تعالى عن ذى القرنين: ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ [الكهف: ٨٤، ٨٥].

وقد ذكر مُلْكُ داود وسليمان عليهما السلام فى سور أخرى من القرآن الكريم نكتفى منها بقوله تعالى على لسان سليمان عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ [ص: ٣٥] فاستجاب الله ـ تعالى ـ لدعائه ووهبه ملكاً لم يكن لأحد من بعده ويُفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ (٣٨) هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ [ص: ٣٦ - ٤٠]. ونعتقد أن هذا المُلْك لم يؤته أيضاً أحد من قبل سليمان عليه السلام .. إذاً فهو مَلِكٌ كان له مُلْكٌ لا نظير له من قبله ولا من بعده.

* إن هذا التعريف المقتضب لمُلْك سليمان عليه السلام كان لازماً للتمهيد للحديث عن شكره وتواضعه .. فالشكر والتواضع لا يلتفت إليهما ممن كان عارياً من المال أو السلطان أو الجاه، ولكن ينظر إليهما ممن كان له بعضٌ من ملك سليمان

عليه السلام فيُحمد له حيث إن الجحود والاستكبار كثيراً ما نجدهما من صفات أصحاب المال والسلطان.

* أما عن سليمان عليه السلام .. النبى والرسول والملك .. فهو نموذج باهر للشكر والشاكرين ومثل يحتذى للتواضع والمتواضعين، ولا غرابة فى ذلك فهو إلى جانب ملكه .. كان رسولاً نبياً.

والنموذج والمثل يوضحهما تلك الآيات التى صدرنا بها هذا الموضوع وتحكى لنا طرفاً من ملك سليمان عليه السلام. فقد حشر له جنوده من الجن والإنس والطير فهم مجموعون له لا يتفلت منهم أحد ولا يخرج عن المهمة التى أوكلت إليه، ولا يشذ عن الصف. وبينما هم كذلك حدثت آية من آيات ملكه العريض، وآية من آيات علمه الواسع والذى أشار إليه الله تعالى فى قوله تعالى: ﴿ولقد آتينا داود وسليمان علماً ..﴾. والإشارة إلى هذا العلم دون تعريف يوحى باتساعه فقد استمع إلى نملة لها سلطة الأمر والنهى فهى قائدة لوادى النمل. استمع إليها وهى تأمر النمل أن يدخلوا مساكنهم حتى لا يحطمنهم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون. لقد عرفت النملة أن هذا سليمان عليه السلام وأن هؤلاء جنوده وأنهم سوف يمرون على واديهم، فإذا حدث ذلك فسوف يتحطم النمل تحت أقدام الجنود وهم لا يشعرون بذلك، أو لا يشعرون بكلامها إلى النمل وبالتالى لا يتسنى لهم تفادى تحطيمه أما سليمان عليه السلام فسوف يستمع إلى قولها ويأمر جنوده بتفادى السير فوق وادى النمل.

* يتبسم سليمان عليه السلام ضاحكاً من قولها .. فما الذى أضحكه؟

الذى أضحكه إما انزعاج النملة مخافة التحطيم لها ولساكنى وادى النمل وما حدث من تحركات بعد ذلك بعد الأمر بالدخول إلى المساكن، وإما مدى حرص النملة على النمل، كحرص القائد على رعيته، وإما شهادتها له بالرحمة والعدل حيث أنه لو شعر بالنمل لتجنب تحطيمه،، ولو تحطم النمل أو بعضه فسوف يكون ذلك لعدم شعور سليمان عليه السلام وجنوده بالنمل .. والله أعلم.

* بعد ذلك تتجلى لنا آية شكر سليمان عليه السلام وتواضعه حيث قال: ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾.

يا لها من كلمات من نور تعلن عن أدب النبوة، وهدى المهتدين، وخلق المرسلين الذين اصطفاهم رب العالمين. لقد نسب هذه النعمة للمنعم سبحانه وتعالى فحق عليه شكره بل إنه دعا الله عز وجل أن يجعله دائم الشكر له وممنوعًا من الغفلة عن الشكر على نعمه التى لا تحصى ولا تعد والتى اختصه منها بالكثير دون غيره من عباده الصالحين، واستطرد فى الدعاء فطلب من الله ـ تعالى ـ أن يعينه على العمل الصالح الذى يقبله ويرضيه، فكم من أعمال تبدو لأصحابها أنها حسنة ولكنها ليست كذلك عند الله مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾ [فاطر: ٨]، وكم من أعمال حسنة فعلاً ولكنها لا ترضى الله تعالى لأنها لم يُقصد بها وجهه فلا تُقبل عنده ولا يؤجر صاحبها عليها .. لذلك قال سليمان عليه السلام ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ﴾، ثم يختم دعاءه بأن يدخله فى زمرة عباده الصالحين.

يا له من تواضع من نبى ورسول وملك آتاه الله ملكًا لا ينبغى لأحد من بعده ويدعو الله أن يجعله واحداً من عباده الصالحين وأن يحشره فى زمرتهم برحمته لا بعمله .. هؤلاء الذين وعدهم الله بحسن الثواب، وجنات تجرى من تحتها الأنهار، ورضوان من الله أكبر مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ٧٢]

ولم ينس وهو يدعو لنفسه أن يذكر والديه وبنعمة الله عليهما وقد نال منها فى حياتهما وامتدت إليه من بعدهما وأعظمها نعمة النبوة والرسالة عن أبيه داود عليه السلام.

وحيث أنه بضدها تتميز الأشياء .. وتتضح أكثر، فإن عظمة شكر وتواضع سليمان عليه السلام تتضح أكثر إذا قارناها بوصفٍ للإنسان كما جاء فى القرآن

الكريم ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ۝٨ ﴾ [العلق: ٦ - ٨]، وبإنسان عيّنه الله تعالى وجعله نموذجًا للجحود والاستكبار .. ألا وهو قارون الذى آتاه الله تعالى ـ علمًا غزيرًا ومالاً وفيرًا فماذا قال ردًا على نصيحة قومه؟ ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ... ﴾ [القصص: ٧٨]. فماذا كانت عاقبته؟ ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ ... ﴾ [القصص: ٨١].

* ويبهرنا سليمان عليه السلام بنموذج آخر من نماذج الشكر فى نفس السورة .. سورة النمل فقد طلب من أهل مجلسه وهم من ذوى الشأن من رعيته أن يأتوه بعرش بلقيس ملكة سبأ التى أخبره الهدهد عنها وعن عرشها وعن قومها .. ولنترك آيات الله البينات تخبرنا عما حديث ..

* ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ۝٣٨ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ۝٣٩ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٣٨ - ٤٠].

* وقبل أن نتكلم عن شكر سليمان عليه السلام، فإننا نلحظ فى الآيات مظاهر قوة ملكه، وتنوع هذه القوى وتنافس الملأ من رعيته على تلبية طلباته وتنفيذ أوامره. ففى مجلسه كان هذا العفريت من الجن الذى عرض أن يأتى بالعرش قبل أن ينفض المجلس، ونافسه فى ذلك هذا العالم بالكتاب فعرض أن يأتيه بالعرش قبل أن يرتد إليه طرفه أى فى «لا زمن» .. والنص القرآنى يأتى متوافقًا مع هذا العرض المذهل حيث نفاجأ باستقرار العرش عند سليمان عليه السلام قبل أن يبت فى أى العرضين أفضل .. فالأفضلية واضحة والبت يحتاج إلى زمن مهما قل ـ والعرش قد حضر فى «لا زمن».

* ولا نريد أن نتكلم عن هذه القدرات الخارقة وكيف حضر العرش فليس هذا هو موضوعنا ولكن ما يعنينا هو الموقف الباهر لسليمان عليه السلام الذى لو حدث

مع غيره من الملوك لاختال وافتخر ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣]، كذلك يقول تعالى: ﴿وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ [الإسراء: ٣٧]، وكذلك يقول تعالى على لسان لقمان وهو يعظ ابنه: ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨]

* لقد نسب سليمان عليه السلام الفضل لصاحب الفضل، كما نسب قبلها النعمة للمنعم بعد استماعه للنملة، وعرف أن هذا إلى جانب كونه فضلاً فهو ابتلاء له بالخير والفضل ليرى هل يشكر الفضل أم يكفره؟

حقًا .. إن أشد الناس بلاءً الأنبياء كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل، ويبتلى الرجل على قدر دينه، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه» رواه ابن كثير فى تفسيره ـ سورة الأنبياء ـ.

فلا يصمد فى مثل هذه المواقف وينجو من الاختيال والفخر إلا أولو العزم وفى مقدمتهم الأنبياء والرسل. وقد اجتاز سليمان عليه السلام الاختبار وشكر الله عز وجل بما هو أهله ولم يكتف بذلك بل إنه توجه إلى أهل مجلسه وإلينا بعظة بالغة وسنة ماضية، وهى قوله تعالى: ﴿ ... وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾. وعلى نمط هذه الآية يقول تعالى:

* ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

[النساء: ١١١].

* ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾

[الأنعام: ١٠٤].

* ﴿مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾.

[الإسراء: ١٥].

* ﴿ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾.

[العنكبوت: ٦].

* ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾.

[لقمان: ١٢].

* ﴿ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾. [فاطر: ١٨].

* ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾.

[فصلت: ٤٦]، [الجاثية: ١٥].

* ﴿ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴾.

[محمد: ٣٨].

* ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ... ﴾ [الفتح: ١٠].

لقد ذكرنا هذه الآيات لنثبت هذه القاعدة المضطردة، وهذا القانون القرآنى فى أحواله المختلفة .. الشكر والكفر، البصر والعمى، الهدى والضلال، الصلاح والسوء، وغير ذلك من الأحوال، فكلها تعود على أصحابها، أما الله تعالى فإنه غنى كريم حميد. غنى عن العالمين، وأكرم من أن يحتاج لمخلوقاته، وحميد فى ذاته بلا حاجة لحمد الحامدين.

ونرى أن هذه الآيات، هى خير ختام للنموذج الباهر للشكر والشاكرين، والمثل الذى يحتذى للتواضع والمتواضعين .. سليمان عليه السلام.

اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

.. آمين.

(٥٠) يا من أمام دعوة الحق تتردد

تعال واستمع إلى موعظة العدد

لعل قلبي ينشرح وعشاوة عيني تتبدد

* وقف سليمان عليه السلام يستعرض جنوده من الجن والإنس والطير وغير ذلك من الجنود من مختلف الأجناس ويتفقد الحاضر من الغائب منهم، فلم يقع نظره على أحد الهداهد .. فتساءل .. هل الهدهد حاضر وهو لا يراه أم هو غائب وبالتالى فهو لا يراه ؟ وهذا التساؤل للتحوط حتى لا يجزم بغيابه فقد يكون حاضراً وهو لا يراه. فلما تبين له غيابه وكان ينبغي أن يكون حاضراً .. توعده قائلا: ﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [النمل: ٢١]. وياله من ملك عادل وحازم فى نفس الوقت .. فقد تأكد أولاً من غيابه وأعلن على الحاضرين عقوبة من يغيب من الجند دون إذن مسبق وهذه العقوبة تتراوح ما بين العذاب الشديد والذبح، وذلك حسب فداحة أثر الغياب، ولا يعفى من توقيع العقوبة سوى تقديم عذر مقبول مقروناً بالأدلة الواضحة التى لا يتطرق إليها شك.

ولم يمض وقت طويل حتى حضر الهدهد وألقى بيانه .. ولنفسح المجال لهذا الهدهد العجيب ولنستمع إلى ما يقول :

* ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ [النمل: ٢٢].

ويقف الإنسان مشدوهاً أمام ما افتتح به الهدهد بيانه .. فقد تكلم بلهجة الواثق من نفسه فى مواجهة من ؟ فى مواجهة نبى ورسول وملك آتاه الله ملكاً لا ينبغى لأحد من بعده وفى حضور حشد من الجنود من كل جنس، ولا ننسى أن المتكلم هو هدهد ضئيل الحجم، وضعيف الخلْق، ولكنه قوى بحجته ومنطقه، فأخبر سليمان عليه السلام بأنه أحاط بما لا يحيط به .. يا لها من جرأة فى مخاطبة الملوك الذين لا يُسلَّمون ـ عادة ـ بأن أحداً من الرعية يعرف ما لا يعرفونه .. فإن سلَّم ملك بذلك بينه وبين نفسه فإنه لا يسمح لأحد بأن يُصرح بذلك فى مواجهته. ولكن علينا ألا نتعجب من منطق الهدهد إذا علمنا أن مملكة سليمان عليه السلام .. هى مملكة الحق والعدل، والقوة والحزم، والعزة والكرامة.

إنه مُلْك مأذون به من الله الذى يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، إنه مُلْك بالله ولله وليس ملكًا مغتصبًا أو عضوضًا كشأن كثير من الممالك.

فما الذى جاء به الهدهد لسليمان عليه السلام ؟!

جاء له من سبأ بنبأ يقين **اما عن سبا** .. فهى مملكة فى اليمن كان لها حضارة عريقة حتى أنهم عرفوا فى هذا الزمن السحيق بناء السدود لتنظيم الرى والزراعة فبنوا سد مأرب، وقص الله ـ تعالى ـ علينا بعضًا من أحوالهم فى سورة من سور القرآن سميت باسمهم هى سورة سبأ.

اما عن النبا :

فلنستمع إليه من مقالة الهدهد :

* ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٣، ٢٤].

* لقد طار الهدهد فوق أرض عرف أنها مملكة، وأن هذه المملكة تسمى سبأ، وأن من يتولى المُلْك على هذه المملكة امرأة، وأن هذه الملكة أوتيت من كل أسباب الملك ما يجعلها تحكم قبضتها على الرعية، وأوتيت من الثراء ما يجعلها على رأس دولة قوية يهابها من حولها ويخطبون ودها .. وفوق كل ذلك لها عرش عظيم.

مما سبق يتضح لنا أن هذا الهدهد العجيب يعرف المرأة من الرجل، ويعرف الملكة من الرعية، ويعرف أركان الملك وأسباب القوة، ويعرف أن لكل ملك عرش هو رمز للمُلْك، ويميز الملك عن حاشيته، وأن هذه الملكة لها عرش عظيم يدل على مُلْكٍ عظيم .. لقد رأى كل ذلك بعين بصره .. ولكن الأعجب هو ما رآه بعين بصيرته .. فقد رأى أن هؤلاء القوم يسجدون للشمس وهى مخلوقة مثلهم، وكان الأولى بهم أن يسجدوا للخالق .. وهو الله رب العالمين .. فما الذى قادهم إلى هذا الضلال ؟

لقد عرف الهدهد أنه الشيطان الذى زين لهم هذه العبادة الباطلة فرأوها حسنة

مصداقًا لقوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ...﴾ [فاطر: ٨]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤]. وبهذا التزيين للضلال، فقد صدهم الشيطان عن سبيل الله وصراطه المستقيم .. فضلوا ولم يهتدوا، وإذا كان هذا هو الضلال وأسبابه .. فما هو الهدى والطريق إليه ؟

يتحول منطق الهدهد من ذكر ما رآه بعين البصر والبصيرة .. إلى إلقاء موعظة على ضوء معرفته بالله ـ جل وعلا ـ ولنتابع معه هذه الموعظة.

* ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

[النمل: ٢٥ - ٢٦].

* لم يكتف الهدهد بذكر النبأ عن أحوال سبأ، ولكنه تحول إلى الموعظة التى تثبت لنا أنه مؤمن لنفسه وواعظ وناصح لغيره.

لقد عرف الهدهد أن السجود تعظيم وأن التعظيم لا يكون إلا لله عز وجل، فكيف يسجد هؤلاء للشمس وهى مخلوقة مثلهم وسجود المخلوقين لا يكون إلا للخالق سبحانه وتعالى مصداقًا لقوله جل وعلا: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ...﴾ [الحج: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

لقد اهتدى هذا الهدهد بالحنيفية السمحاء والحجة البالغة التى أقامها خليل الرحمن على قومه وأعلنها مدوية بعد أن رأى الكوكب ثم القمر ثم الشمس .. فماذا قال ؟

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) ﴾ [الأنعام: ٧٦ - ٧٩].

ونعود إلى الهدهد الذى بدأ موعظته بهذه الحقيقة الأولية من حقائق العقيدة وهى أن السجود والخضوع والخشوع لله وحده الذى أنعم على ملكة سبأ وقومها بهذا الملك وهذا الثراء وهذه القوة وهذا العرش العظيم. وعبر عن ذلك بمنطق الهداهد التى خلق الله لها القدرة على رؤية الدود وهو يسرح فى باطن الأرض ولا يراه غيره من الطيور والمخلوقات فينقض على هذا الدود فيخرجه من باطن الأرض ليأكله ويكف ضرره عن الذين يفلحون الأرض ولذلك سمى (صديق الفلاح).

لقد عبر الهدهد بما يدور فى خلده واصطبغ تعبيره بذاتيته .. فهؤلاء القوم أولى بهم أن يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السماوات والأرض ويعلم ما يخفون وما يعلنون.

لقد وصف الله ـ تعالى ـ بما يطيق عقله بوصف صحيح ختمه بشهادة التوحيد ـ الله لا إله إلا هو ـ ولم ينس أنه سبق له أن وصف عرش ملكة سبأ بأنه عرش عظيم .. فأثبت لله أنه هو رب العرش العظيم .. فهو واهب العظمة لكل عظيم .. وعظمته وعظمة عرشه عظمة حقيقية وذاتية ودائمة لا يصح مقارنتها بأى عرش من عروش الدنيا مهما بدت عظمته فهو موهوب من الواهب فضلاً عن أنه زائل هو ومن يجلس فوقه .. فالدوام لله وحده ومن لم يقر فى الدنيا بهذه الحقيقة الأزلية، فسوف يقر بها فى الآخرة ﴿ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر: ١٦].

فالملك لله ـ جل وعلا ـ فى الدنيا والآخرة .. وما ملوك الدنيا إلا مستخلفون

ومبتلون بملكهم، وسوف يحاسبون عليه يوم القيامة .. حافظوا أم ضيعوا، أصلحوا أم أفسدوا، أقاموا العدل أم ظلموا.

* وبعد أن انتهى بيان الهدهد بما تضمنه من معلومات وعظات انتظر حتى يحكم سليمان عليه السلام فى شأنه .. أيقبل عذره أم يرفضه ؟

فقال سليمان عليه السلام :

* ﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ [النمل: ٢٧، ٢٨].

إذا تأملنا ما قاله سليمان عليه السلام فإنه يعنى قبولاً مبدئيًا لعذر الهدهد وتكليفه بمهمة جديدة سوف يتضح بعدها أصدق أم كان من الكاذبين.

وما حدث بعد ذلك يدل على أن الهدهد كان من الصادقين.

ويبقى بعد ذلك سؤال .. هل كان ذهاب الهدهد إلى مملكة سبأ بتكليف من سليمان عليه السلام ؟ وهل غياب الهدهد كان لتأخره فى أداء هذا التكليف عن الوقت المحدد للعودة ؟ أم كان مكلفًا بمهمة أخرى فصادفه ما رأى وكان سببًا فى تأخيره عن ميعاد عودته ؟ أم كان فى مهمة استطلاعية دورية أو فى جولة حرة قادته للطيران فوق مملكة سبأ دون قصد منه ؟

إن النص القرآن لا يجيب بشكل قاطع على هذه الأسئلة، بل إنه يفتح الباب لكل هذه الاحتمالات، وما يهمنا فى هذا الصدد أننا قد عرفنا ..

* كيف كانت تدار الأمور فى مملكة سليمان عليه السلام ؟

* وكيف أنها مملكة قائمة على الحق والعدل، والقوة والحزم، والعزة والكرامة.

* وكيف أن بطل هذه القصة .. طائر صغير، وجندى من الجنود .. ألا وهو الهدهد ؟

* وكيف أننا علمنا وتعلمنا الكثير من هذا الهدهد العجيب.

* وكيف أن هذا الهدهد كان سببًا فى هداية ملكة سبأ وإسلامها وقومها لله تعالى.

ولهذا الأمر الأخير .. حديث آخر.

سلام عليك أيها الهدهد، وسلام على الملك الذى أنت من رعيته وجنده، وسبحان من علمك وهداك، وسبحانه من خلق فسوى وقدر فهدى.

(٥١)

سليمان عليه السلام .. ملك وقوة بالحق

وبلقيس .. ملك وقوة بغير حق

فماذا حدث ؟

* إن ثراء المعانى فى هذه الآيات البينات من سورة النمل عن سليمان عليه السلام تجعلنا نتوقف ونتأمل، بل ونطيل التوقف والتأمل لعلنا نستوعب هذه المعانى ونهتدى بهديها ـ وقد سبق لنا أن توقفنا مع سليمان عليه السلام كنموذج للشكر والشاكرين، ومثل يحتذى للتواضع والمتواضعين، كما توقفنا معه فى موقفه مع الهدهد وما جاء به من معلومات عن ملكة سبأ، والدرس الذى ألقاه علينا عن العقيدة الصحيحة وحقيقة التوحيد.

والآن .. نتوقف مع سليمان عليه السلام الذى يُمثل المُلْك والقوة بالحق فضلاً عن النبوة والرسالة، وقصته مع بلقيس ملكة سبأ .. التى تمثل المُلْك والقوة بغير حق.

إن هذه القصة تبدأ مع نهاية قصة سليمان عليه السلام والهدهد .. لقد انتهت مهمة الهدهد عند إلقاء الرسالة التى كلفه سليمان عليه السلام بتوصيلها إلى ملكة سبأ .. فماذا حدث ؟

* ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾.

[النمل: ٢٩ - ٣١].

* إن ما يلفت النظر فى هذه الآيات وصف بلقيس للكتاب بأنه كريم .. فهل هذا الكرم شكلاً أم موضوعاً ؟

أما عن الشكل فلا نعرف عنه شيئاً ولكنه لن يزيد عما يتبادله الملوك من رسائل وأن يطيق الهدهد حمله.

أما عن الموضوع فهو معروف نصًا من الآية وهو مختصر اختصاراً مذهلاً بأسلوب البرقيات العاجلة. وهو كتاب كريم من وجهة نظر قارئ القرآن لأنه من نبى كريم ولأنه يبدأ بالبسملة ولأن الله ـ تعالى ـ وصفه بذلك. ولكن كيف يكون كريمًا من وجهة نظر بلقيس وهو مكتوب بلهجة آمرة ؟ كما أنه بمثابة طلب استدعاء، على أن يأتى المستدعى مسلماً ومستسلماً .. فأين الكرم فى كل هذا ؟

هل هو أدب الملوك فى استقبال رسائل الملوك ؟ أم هو أسلوب لطمأنة الرعية ؟

أم هو تأثير البسملة التى تضمنها الخطاب ويكون ذلك إرهاصًا بقرب إسلامها واستجابتها لدعوة سليمان عليه السلام أن تسلم معه لله رب العالمين ؟ .. الله أعلم.

* ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾.

[النمل: ٣٢ - ٣٣].

* لقد استشعرت بلقيس من اللهجة الآمرة والحاسمة والمختصرة لرسالة سليمان عليه السلام بالخطر الداهم عليها وعلى مملكتها وعرشها، فطلبت مشورة الملأ .. فهل كان ذلك دأبها مع الملأ ؟ أم ألجأتها لهجة الخطاب إلى طلب الفتوى والرأى على غير عادتها مثلما حدث من فرعون عندما جاءه موسى عليه السلام بالبينات من ربه ودار بينه وبين ملأه الحوار التالى :

﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) ﴾ [الأعراف: ١٠٩ - ١١٢].

إن الأمر يحتمل هذا وذاك. فما كان من الملأ إلا أن ردوا إليها الأمر مكتفين بالإشارة إلى قوة المملكة وشدة بأسهم فى الحرب.

* ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾.

[النمل: ٣٤ - ٣٥].

* ذكّرتهم بلقيس بالقاعدة المعروفة أن الحرب إذا دارت سجالاً بين ملكين من ملوك الدنيا فلابد من منتصر ومهزوم، وأن المنتصر إذا دخل قرية المهزوم داس بجحافله على كل ما يصادفه وخرب ودمر كل أسباب القوة التى كانت للمهزوم، ثم يأخذ ما

بقى منها غنائم حرب، وما بقى من الجنود فإنه يأسر من يأسر ويقتل من يقتل، وأما من وراءهم من النساء والأولاد فهم سبايا ورقيق. وأخيراً يقع فى يده الملك المهزوم ويلقى على يديه كل ألوان الذلة والهوان .. وإن شاء قتله. ذكرتهم بكل ذلك حتى يتحسبوا للأمر حسابه.

ونلحظ فيما قالته أن هذه لهجة من انهزم داخليًا .. وبأى شىء ؟ برسالة مقتضبة ولكنها أحست أن من ورائها ـ كما قلنا ـ ملكاً قادراً.

وهذا يُذكّرنا برسائل خلفاء المسلمين فى عصور العزة الإسلامية رداً على مناوشات الأعداء أو تعرضهم لإيذاء المسلمين، منها ما قاله أحدهم لملك الأعداء: «لأبعثن إليك جيشًا أوله عندك وآخره عندى»، وتصور معى مدى الرعب الذى يصيب ملكاً تصله من ملك آخر مثل هذه الرسالة وخاصة إذا علم أنه قادر على إنفاذ تهديده.

وبعد أن قلّبت بلقيس الأمر على وجوهه المختلفة، أبلغت الملأ برأيها وهى أنها سوف ترسل إليهم بهدية وليس إلى سليمان عليه السلام فقط، وذلك كعادة الملوك الذين يرسلون الهدايا للملوك وللحاشية أيضًا لاستمالة أفرادها لما يريدون ولتأثيرهم المعروف على الملوك مثلما فعل رؤوس الشرك فى مكة مع النجاشى ملك الحبشة وبطارقته لاستعادة المسلمين الذين هاجروا إلى بلده بناءً على ما أشار به عليهم الرسول عليه الصلاة والسلام .. فخاب مسعى وفدهم ورد إليهم النجاشى هداياهم على غير رضا البطارقة ورفض تسليم من لجأوا إلى حماه وعدله.

إن هذا الرأى الذى انتهت إليه بلقيس يدل إما على أنها لم تكن تعرف سليمان عليه السلام، أو تعرفه كمجرد ملك وليس نبيًا ورسولاً، وإما يدل على أنها أرادت اختبار هذا الملك هل يقبل هذه الرشوة الواضحة فيكون مثل كثيرين غيره أم لا يقبلها فيكون له شأن آخر غير الملوك الذين يقبلون هذه الرشاوى .. أو الهدايا إذا أردنا تجميل المعانى .. فماذا حدث ؟

* ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [النمل: ٣٦، ٣٧].

* بهذا الرد من سليمان عليه السلام عرفت بلقيس أى نوع من الملوك يكون هذا الملك، وعرفت أن ما كانت تحذر منه أوشك على الوقوع، ولا مفر من تنفيذ ما جاء فى كتابه المقتضب .. بل والمسارعة إلى ذلك فهى لا تعرف ماذا يجرى على الجبهة الأخرى .. وتعالوا بنا نعرف الذى لن يتسنى لبلقيس أن تعرفه :

* ﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٣٨ - ٤٠].

* لقد تأكد سليمان عليه السلام أن بلقيس وقومها آتية لا محالة، ولكنه أراد أن يفاجئها بأمر خارق حتى لا يطول الجدل بينها وبينه عند حضورها، فطلب من الملأ وهم جنود من جميع الأجناس ـ إنس وجن وطير وغير ذلك ـ أن يأتوا إليه بعرشها. فتقدم إليه أشد جنس الجن قوة وهو عفريت من الجن، وكان عرضه أن يأتى بعرش بلقيس قبل أن ينفض المجلس. ولكن كان هناك عرض آخر ممن عنده علم من الكتاب أن يأتى بالعرش قبل أن يرتد إلى سليمان عليه السلام طرفه، أى الوقت الذى يستغرقه غمض العين، أى فى «لا زمن» تقريباً.

ومعنى ذلك أن العرش قد حضر قبل أن يرد عليه سليمان عليه السلام.

وقيل أن الذى عنده علم من الكتاب هو سليمان عليه السلام نفسه، وأن خطابه كان للعفريت من الجن، فبالرغم من العرض المذهل الذى عرضه عليه العفريت فإن سليمان بعلمه من الكتاب قادر على أن يأتى بالعرش قبل أن يرتد للعفريت طرفه.

وقد يسأل سائل .. لماذا إذن طرح سليمان عليه السلام الأمر على الملأ ولديه هذه القدرة الفذة ؟

نقول ـ والله أعلم ـ: أنه طرح الأمر على الملأ استغلالاً للطاقات المتاحة واختباراً لها، ولاعتبارات الجندية .. وليس لعجز عن التصرف.

وقد سبق لنا أن تناولنا ما قاله سليمان عليه السلام عندما وجد العرش مستقراً عنده ونكتفى بذلك، ونتابع بعد ذلك ما حدث بعد حضور العرش وحضور صاحبة العرش .. بلقيس.

* ﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾.

[النمل: ٤١ - ٤٣].

* لقد كان رد بلقيس على السؤال غاية فى الذكاء والحصافة والدقة والثبات، فرغم هول المفاجأة لم يزد ردها عن ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ .. كلمتان لا أكثر تعبران عن حقيقة ما رأت وهو العرش بعد تنكيره أى تغيير بعض ملامحه .. فهو العرش بلا تنكير، وكأنه العرش بعد التنكير. أما عن الشق الثانى من الإجابة وقولها: ﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾.

فأى علم أتاها ؟ ومن قبل ماذا ؟ ومتى أسلمت هى وقومها ؟

(بترجيح الرأى الذى نسب هذا القول إليها).

وإجابة على هذه الأسئلة نقول ـ والله أعلم ـ: أن العلم الذى أتاها من قبل هو :

١ ـ خطاب سليمان عليه السلام الذى ألقاه إليها الهدهد.

٢ ـ رسالة سليمان عليه السلام الشفهية التى نقلها حامل هداياها إليه.

٣ ـ ما يتناقله الركبان عن سليمان عليه السلام ومملكته التى لابد أن يكون قد

ذاع صيتها فى البلاد .. وخاصة البلاد المجاورة.

وكل ذلك علم أتاها من سليمان عليه السلام وعنه قبل أن تحضر إليه، والذى جاء بها وقومها هو إيمانها بدعوته فأتوا إليه مسلمين كما طلب منهم فى رسالته الأولى مع الهدهد.

وحتى هذه اللحظة لم يلتق سليمان عليه السلام مع بلقيس .. فماذا حدث عند اللقاء وبعده ؟

* ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النمل: ٤٤].

* لقد قيل لبلقيس أهكذا عرشك، وقيل لها ادخلى الصرح .. وكل هذا تهيئة لها لمقابلة سليمان عليه السلام، ولم تتم المقابلة إلا عندما قال ـ وليس قيل التى تنسب للحجّاب على الأرجح ـ: ﴿ قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ﴾.

وهذا الصرح كان مفاجأة أخرى لها بعد مفاجأة العرش .. وهو صرح صنع من الزجاج الشفاف ويجرى من تحته المياه ويُهيأ لمن ينظر إليه أنه سوف يخوض فى الماء .. مما اضطر بلقيس أن ترفع ملابسها عن الأرض مخافة أن تبتل بالماء فكشفت عن ساقيها .. عندئذ ـ فقط ـ ظهر سليمان عليه السلام وقال لها: أرسلى ملابسك كما كانت فلن تبتل لأنه صرح مصنوع من زجاج شفاف يكشف ما يجرى تحته من ماء.

فاجتمعت مفاجأة العرش مع مفاجأة الصرح مع رؤية سليمان عليه السلام فما كان منها إلا أن أسلمت مع سليمان ـ وليس لسليمان ـ لله رب العالمين، وتوحد العرشان على الحق وبالحق.

(٥٢)

أسئلة لم ترد إجابتها في التفاسير

تعال بنا نحاول الإجابة عليها

قد يعن لقارئ القرآن بعض الأسئلة فيرجع إلى التفاسير لكى يعرف الإجابة عليها فلا يجد لأن هذه الأسئلة إما أنها لم ترد على خاطر المفسر، وإما أنها ليست من بين اهتمامات المفسر الذى يهتم باللغة من حيث النحو والصرف والبلاغة، أو بالأحكام الشرعية، أو بسرد آراء من سبقوا .. وغير ذلك من الاهتمامات التى تغلب على طابع كل تفسير.

ولقد عنّت لى بعض الأسئلة ولم أجد لها إجابات فى التفاسير .. فحاولت الإجابة عليها مع الحذر الشديد حتى لا أقول فى القرآن برأيى،و عرضت هذه الإجابات على أهل الذكر فأقروها .. وشجعنى هذا الإقرار على عرضها عليك أيها القارئ الكريم لكى تعم الفائدة، وحتى لا أكون من الذين يكتمون ما آتاهم الله من فضله، وحتى أثير عندك الرغبة فى التأمل عند قراءة القرآن الكريم .. لعل الله يعطيك من فضله ﴿ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٠].

تعال بنا أيها القارئ الكريم .. نطرح بعض الأسئلة وإجاباتها.

أولاً: هل كان لابد أن يكون الرجل أعمى فى سورة عبس؟

يقول تعالى فى أول سورة عبس:

* ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ۝٤ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ [عبس: ١ - ١١].

وإجابة على السؤال الموضح بعاليه نقول .. والله أعلم:

١ ـ المؤمن كيِّس فَطِن، ولو كان السائل رجلاً مؤمنًا مبصراً لحتمت عليه كياسته وفطنته ـ وهو يرى الرسول عليه الصلاة والسلام منشغلاً بدعوة كبار القوم إلى الله ـ أن ينتظر حتى يفرغ الرسول عليه الصلاة والسلام من ذلك ثم يسأله عما يريد، ولكن الأعمى لم ير ذلك فسأل سؤاله وهو غير متهم بعدم الكياسة أو الفطنة لأنه أعمى ولكى تنزل هذه السورة ونتعلم مع الرسول عليه الصلاة والسلام هذا الدرس القيم الذى تحتويه السورة.

٢ ـ الأعمى لم ير عبوس الرسول عليه الصلاة والسلام وإلا كان ذلك مدعاة لحزنه على نفسه، وحزنه على مضايقة الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الدرجة التى جعلته يعبس فى وجهه وهو الحريص على أن يلقى أصحابه بوجه بشوش، ولو كان الرجل مبصراً لرأى هذا العبوس على وجه الرسول عليه الصلاة والسلام.

٣ ـ ما حدث كان تطبيقًا عمليًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ...﴾ [الحجرات: ١٣]. فالرسول عليه الصلاة والسلام قد انصرف عن هذا الرجل المؤمن الفقير الأعمى الهين على الناس فى واقع الحال .. انصرف عنه إلى كرام الناس عند الناس فى هذا الزمان وهؤلاء وهؤلاء من المشركين. ولكن إذا كان معيار

الكرامة عند الناس يقوم على أوضاع دنيوية من جاه أو مال أو سلطان، فإن معيار الكرامة عند الله هو التقوى، وهو معيار ينبغى أن يلتزمه كل مؤمن بالله واليوم الآخر، فالتقوى هى الميزان الذى توزن به أقدار الناس فى الدنيا والآخرة، هو ميزان الله ـ تعالى ـ وينبغى أن يكون ميزان عباد الله، فالكريم عند الله هو الكريم عند المؤمنين، ومن لا كرامة له عند الله لا كرامة له عند المؤمنين، وعلى ذلك فإن الرجل المؤمن الفقير الأعمى هو الأكرم عند الله من هؤلاء المكذبين المعاندين ولو كانوا من كبار القوم بمعيار هذا الزمان وهو الأولى بالاهتمام. ولو كان هذا الرجل المؤمن مبصراً ومن كبار الصحابة مثل أبى بكر أو عمر ما اتضح لنا هذا الدرس الذى استوعبه الرسول عليه الصلاة والسلام وترجمه فى أفعاله وأقواله.

٤ ـ يروى لنا سهل بن سعد الساعدى ﷺ حديثًا يعتبر تطبيقًا للدرس الذى نتعلمه من هذه السورة قال: مر رجل على النبى عليه الصلاة والسلام فقال لرجل عنده جالس: «**ما رأيك فى هذا؟** فقال: رجل من أشراف الناس هذا والله حَرِىٌ إن خطب أن يُنكح وإن شفع أن يُشفَّع. فسكت رسول الله ﷺ ثم مر رجل آخر فقال له رسول الله ﷺ: **ما رأيك فى هذا؟** فقال: يا رسول الله هذا رجل من فقراء المسلمين هذا حَرِىٌ إن خطب أن لا يُنكح وإن شفع أن لا يشفع. وإن قال أن لا يُسمع لقوله. فقال رسول الله ﷺ: **هذا خير من ملء الأرض مثل هذا**». متفق عليه.

بأى ميزان وزن به الرسول عليه الصلاة والسلام الرجلين ؟

بميزان الله .. بميزان التقوى، وهو ميزان الكرامة عند الله .. وصدق رسول الله ﷺ فيما يرويه لنا أبو هريرة ﷺ أنه قال: «**رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره**» رواه مسلم. وذلك لكرامته عند الله بتقواه.

ألا ترى معى بعد كل ذلك .. أن الرجل المؤمن الذى هو محور القصة كان لابد أن يكون أعمىً وفقيراً وقليل الشأن فيما يبدو للناس ؟

رحم الله الصحابى الجليل عبد الله بن أم مكتوم ـ صاحب هذه القصة، وهو

من المهاجرين الأوائل، استخلفه الرسول عليه الصلاة والسلام على المدينة مرتين، وكان مع بلال بن رباح ﷺ يؤذنان للصلاة، وكان كلما قابله الرسول عليه الصلاة والسلام رحب وقال له: «أهلاً بمن عاتبنى فيه ربى».

ولو افترضنا أننا قابلناه لرحبنا به وقلنا له: أهلا بمن كان سببًا فى نزول سورة عبس.

ونسأل الله أن نلقاه فى الجنة إن شاء الله .. يبصرنا ونبصره.

ثانياً : لماذا مَنَّ الله على الإنسان بقوله تعالى :

﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾ [البلد: ٥، ٩]

دون باقي الحواس والجوارح

نقول ـ والله أعلم ـ أنهما الأداتان اللتان لهما غطاء يمنعهما من العمل إذا أراد الإنسان ذلك، ويرفع عنهما الغطاء إذا أراد لهما العمل، فالعيون غطاؤها الجفون واللسان غطاؤه الشفتان، وبالتالي فإن المسئولية عن العينين واللسان أكثر من المسئولية عن الأذنين والأنف، لأن الأذن تسمع رغمًا عنها، وكذلك الأنف تشم رغمًا عنها، ولا يكون حساب إلا بتكلف الاستماع لما لا يجوز، وتكلف الشم لما لا يجوز.

ومن ناحية أخرى .. فإن العين أداة إدراك واستقبال، واللسان أداة تعبير وإرسال، وما حياة الإنسان وتعاملاته مع غيره من مخلوقات الله إلا سلسلة من الإدراك والتعبير والإرسال والاستقبال وهو محاسب على هذا وذاك، وخاصة العين واللسان لأن له إرادة في استخدامهما ووسيلة لضبط هذا الاستخدام. وكتاب الله ـ تعالى ـ وسنة رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيهما كثير من التوجيهات والمحاذير للعين واللسان .. فهما نعمتان إذا أحسن استخدامهما، وهما نقمتان إذا أسيء استخدامهما.

أما العين .. فيقول تعالى :

* ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [النور: ٣٠].

* ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ... ﴾.

[النور: ٣١].

* ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾.

[الإسراء: ٣٦].

* ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩].

ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام :

* «كُتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة: العينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخُطا، والقلب يهوى ذلك ويتمنى ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه» متفق عليه ـ رواه أبو هريرة رضي الله عنه.

* «النظرة سهم مسموم من سهام إبليس من تركها من مخافتى أبدلته إيماناً يجد حلاوته فى قلبه» حديث قدسى رواه ابن مسعود وذكره ابن كثير فى تفسيره.

اما عن اللسان فيقول تعالى :

* ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨].

* ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [الملك: ١٣].

* ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١٢].

ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام :

* «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت» رواه البخارى ومسلم.

* «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يُلقى لها بالاً يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يُلقى لها بالاً يهوى بها فى جهنم» رواه البخارى.

* ويقول أيضاً في نهاية حديثه المشهور مع معاذ بن جبل ﷺ:

«قلت: يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم؟ فقال: ثكلتك أمك، وهل يكُبُ الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم» رواه الترمذي.

وغير هذه الآيات والأحاديث كثير في كتاب الله ـ تعالى ـ وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام اخترنا ما سبق للدلالة على خطورة أمر العين واللسان .. فلا غرابة بعد ذلك أن يذكرهما الله دون غيرهما من الحواس والجوارح في معرض المن على الإنسان بما أنعم عليه من نعم لا تعد ولا تحصى ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

ثالثاً : لماذا جمع الله بين الليل والنهار والذكر والأنثى في قسم واحد في سورة الليل ؟

يقول تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ١ - ٤].

نقول والله أعلم :

١ ـ لأن الله كما خلق الليل والنهار متكاملين غير متضادين، كذلك خلق الذكر والأنثى متكاملين غير متضادين.

٢ ـ لأن الحياة كما أنها لا تستقيم إلا بالليل والنهار، فإنها لا تستقيم إلا بالذكر والأنثى.

٣ ـ لأن الليل كما جُعل لباسًا، وجُعل النهار معاشًا، كذلك فإن للذكر دوراً في الحياة وللأنثى دور آخر. فإذا كان دور الرجل يختص أساسًا بالإنتاج المادى وعمارة الأرض فإن دور المرأة يختص أساساً بالإنتاج البشرى وعمران الأرض بالذرية .. هو خارج البيت وهى داخله .. ولكل قاعدة استثناء .. ولكن لا ينبغى أن يتحول الاستثناء إلى قاعدة.

٤ ـ لأن من صفات الليل أنه مظلم، ومن صفات النهار أنه مضيء، كذلك فإن للذكر صفات، وللأنثى صفات. وبالتالى لا يجب أن يتشبه الرجال بالنساء، ولا يتشبه النساء بالرجال .. ومن فعل ذلك فهو ملعون كما جاء فى الحديث الشريف.

ونكتفى بهذا القدر من أسباب الجمع .. فهل بعد ذلك يصح أن يثار بين حين وآخر ما يسمى بقضية المرأة، وقضية الرجل .. إن الأمر محسوم بهذه الافتتاحية الفذة، والعميقة المغزى لسورة الليل، وعلى المشتغلين بهذه القضايا الجدلية، ومثيرى الفتن أن يرجعوا إلى كتاب الله إن أرادوا الهدى وابتعدوا عن الهوى.

رابعاً : ما هى العلاقة بين القسم وجوابه فى سورة العاديات ؟

أما عن القسم .. فيقول تعالى :

* ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ① فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ② فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ③ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ④ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴾ [العاديات: ١ - ٥].

يقسم الله ـ تعالى ـ بالخيل .. وهذا على أرجح الأقوال .. يقسم بها فى أحوالها المختلفة عندما تخرج مع الفرسان المجاهدين فى سبيل الله .. فهى عادية من العدو أى الجرى، وهى ضابحة وهو صوت تنفسها أثناء العدو، وينقدح الشرر عندما تحتك حوافرها بالصخر وهى تعدو، وهى مغيرة على الأعداء عادة مع أول ضوء للصباح لتباغتهم، وهى المثيرة لغبار المعارك بحركة أرجلها الرشيقة والسريعة والمتتابعة، وهى الجسورة التى لا تهاب المعارك إذا حمى وطيسها فهى فى الوسط وهى فى البؤرة وليست فى الأطراف.

أما عن جواب القسم .. فيقول تعالى :

* ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ⑥ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ⑦ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات: ٦ - ٨].

فما العلاقة بين الخيل المقسوم بها وبعض أحوالها وبين الإنسان المقسوم عليه فى بعض أحواله ؟

* إنها المقابلة بين الخيل المجاهدة فى سبيل الله .. وهى المقسوم بها، وبين الإنسان القاعد، والجاحد، والمتشبث بالحياة الدنيا وزينتها.

* إنها المقابلة بين عالم الحيوان الذى سُخِّر لخدمة الإنسان فأطاع، وبين عالم

الإنسان الذى كرمه الله وحدد له أشرف غاية فلم يحافظ على هذه الكرامة، وتقاعس عن شرف الغاية.

* إنها المقابلة بين وسيلة الجهاد غير الموعودة بإحدى الحسنيين وبجنات تجرى من تحتها الأنهار، وبين الإنسان الموعود بالنصر أو الشهادة، وبحياة الكرامة فى الدنيا والآخرة ثم إذا هو يتخاذل عن الجهاد فى سبيل الله ويؤثر الحياة الدنيا على الآخرة، يؤثر العاجل الفانى، على الآجل الباقى لأنه جحد فضل ربه عليه واثّاقل إلى الأرض وأحب الدنيا.

* إن هذه المقابلة مقصود بها أن تستحث الإنسان على الجهاد فى سبيل الله وتستثير حماسته ليرغب فيما عند الله فهو خير وأبقى، وتستنهض همته لكى يقدم نفسه وماله ابتغاء مرضاة الله لكى تكون كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا فإن حدث كل ذلك فبها ونعمت .. حيث لا يليق أن تسبقه الخيل إلى كل ذلك، فهو المجاهد وهى وسيلة الجهاد، وهو الموعود من الله بإحدى الحسنيين وهى ليست كذلك.

وإن أصر على القعود فقد قامت عليه الحجة وسوف يشهد على نفسه بذلك فى يوم لا ريب فيه .. والله على كل شىء شهيد.

إن كتاب الله ـ تعالى ـ وسنة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيهما الكثير من الآيات والأحاديث .. للحث على الجهاد فى سبيل الله والوعد بموفور العطاء، وفيهما أيضاً التشنيع على القاعدين والمتثاقلين والوعيد بشدة الجزاء، وعلى كل مسلم أن يرجع إلى هذه النصوص ويقرأ قصص المجاهدين فى سبيل الله الذين سطروا بدمائهم أروع صفحات البطولة والفداء لعل الله يحيى موات الأمة الإسلامية ويقيلها من عثرتها بعد أن تكاثرت عليها الأمم بعد أن ترك المسلمون الجهاد فى سبيل الله .. وأحبوا الدنيا وكرهوا الموت.

خامساً : لماذا ضُربت ثمود مثلاً للطغيان دون سواها من الأقوام فى سورة الشمس ؟

يقول تعالى بعد أطول قسم فى القرآن الكريم .. وهو افتتاح سورة الشمس :

* ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ [الشمس: ١١ - ١٥].

* لقد ذكر الله ـ تعالى ـ عاداً وثمود وفرعون فى سورة الفجر ووصفهم جميعاً بالطغيان : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر: ٦ - ١٤].

فلماذا ضربت ثمود مثلاً للطغيان دون سواها من الأقوام فى سورة الشمس ؟

هل كانت ثمود أكثرهم طغياناً ؟

نقول ـ والله أعلم ـ أن سنة الله عز وجل أن يرسل الرسل ومع كل رسول آية هى دليل وبرهان على صدقه، وهى فى نفس الوقت حجة على قومه.

ولقد أرسل الله ـ تعالى ـ صالحًا عليه السلام إلى قومه ثمود وأخّر عنه الآية التى هى دليل صدقه لأن الله قد علم أزلاً أنهم سوف يطلبونها، فإذا طلبوها وأجابهم إلى طلبهم، كان هذا أدعى إلى تصديق رسولهم وأوقع فى إقامة الحجة عليهم، فلما طلبوا من صالح عليه السلام أن يخرج لهم ناقة عشراء من بطن الجبل وهم بذلك يظنون أنهم يعجزونه فيما يطلبون. فأجابهم صالح عليه السلام إلى طلبهم بأمر الله

وخرجت لهم الناقة العشراء من بطن الجبل، وزادهم الله فوق طلبهم المُعجز بأن جعل ماء البئر الذى يشربون منه قسمة بينهم وبين الناقة .. هم يشربون منه يومًا وهى تشرب منه يوماً ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴾[القمر: ٢٨] وفى اليوم الذى لا يشربون فيه من البئر .. يشربون لبن الناقة بما يغنيهم عن الماء.

فهل آمنوا بعد ذلك ؟

كلاّ .. لقد أصروا على عنادهم وتكذيبهم لرسولهم وتمادوا فى غيهم وطغيانهم وعتوا عن أمر ربهم ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٧] فذبحوا ناقة الله، وآية الله إليهم، فكانوا بذلك أول من جمع بين إيذاء رسولهم وذبح آيته.

ولم يحدث ذلك من أى قوم قبلهم أو بعدهم، فإيذاء الرسل أمر معتاد، ولكن ذبح الآية التى طلبوها كان أمراً تفردوا به، فكانوا بذلك مثلاً فريداً فى الطغيان .. فاستحقوا بذلك عقاب الله ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴾، وكما قال تعالى أيضاً: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٨].

والدليل على تفردهم بفعلتهم الشنعاء .. أن الله تبارك وتعالى أفردهم بالذكر فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا ﴾ [الإسراء: ٥٩].

ولم يذكر الله ـ تعالى ـ غيرهم كنموذج فريد فى التكذيب .. والطغيان.

والطغيان هو تجاوز الحد .. فلما تجاوزت ثمود كل حد فى التكذيب، عاقبهم الله تعالى بالصيحة التى تجاوزت كل حد فى قوتها، فالجزاء من جنس العمل فقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴾ [الحاقة: ٥].

وكما تدين تدان.

سادساً : لماذا انتقلت الاستعاذة من التعميم إلى التخصيص فى سورة الفلق ؟

يقول تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ① مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ② وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ③ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ④ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾.

[الفلق: ١ - ٥].

قبل طرح السؤال .. الذى هو عنوان هذا المقال، ومحاولة الإجابة عليه .. سوف نشرح المفردات التى وردت فى هذه السورة بإيجاز .. تمهيداً لطرح السؤال والإجابة.

* الاستعاذة : معناها الاستعانة، وأعوذ بمعنى أستعين، وألتجئ، وأعتصم، وألوذ، وأحتمى.

* رب الفلق : أى رب الخلْق، وأول معانى الربوبية أنه الخالق، والفلْق هو الخلْق .. ويعرف ذلك من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ﴾ [الأنعام: ٩٥]، وقوله تعالى: ﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ ... ﴾ [الأنعام: ٩٦].

* غاسق إذا وقب : أى الليل إذا أقبل .. حيث يقال غسق الليل إذا أظلم ومنه قوله تعالى: ﴿ أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ ... ﴾ [الإسراء: ٧٨]. والوقوب .. هو الدخول والإقبال.

* النفاثات فى العقد : النفث هو النفخ مع الريق وهو دون التفل، والنفث فى العقد من أساليب السحرة لإعمال سحرهم.

* حاسد إذا حسد : والحسد هو تمنى زوال نعمة الله عن المحسود يستوى فى ذلك أن تتحول إلى الحاسد أو لا تتحول .. فالمهم أن تزول عن المحسود.

بعد هذا الشرح الموجز لمفردات السورة .. نطرح الأسئلة التالية :

لماذا انتقلت الاستعاذة من عموم الشر إلى شرور ثلاثة بصفة خاصة ؟

ولماذا انصب التخصيص على هذه الشرور الثلاثة ؟

وهل هناك رابطة تجمع بين هذه الشرور الثلاثة ؟

وهل ذكر هذه الشرور الثلاثة على سبيل الحصر أم على سبيل المثال ؟

بعون الله وتوفيقه سوف نحاول الإجابة على هذه الأسئلة .. التى لم يتعرض المفسرون لطرحها والإجابة عليها.

إن كل إنسان يتوقى أنواع الشرور المختلفة بأسباب يتخذها، فيتوقى حرارة الشمس بأن يستظل ويتوقى برودة الشتاء بارتداء الملابس الثقيلة، ويتوقى الأمراض بالتطعيم وبأسباب الوقاية المختلفة فالوقاية خير من العلاج، ويتوقى سرقة أمواله باتخاذ الحراس والخزائن، ويتوقى الاعتداء على حياته من إنسان معتدى، أو حيوان مفترس، أو زواحف سامة، أو حشرات ضارة .. يتوقى كل ذلك بحمل السلاح، وبناء الأسوار، وإغلاق الأبواب، ورش المبيدات .. وغير ذلك من أسباب الحماية .. والأمثلة كثيرة تتجاوز الحصر.

وفى عالم المعانى .. فإن الإنسان يتوقى غضب الله وعذاب جهنم بالطاعات وأداء الفرائض وشتى القربات .. وهذه هى التقوى. ويتوقى الجهل بالتعلم، ويتوقى الغضب بالتحلم، ويتوقى الخيانة والغدر بالحذر والتحوط، ويتوقى الفقر بالإدخار، ويتوقى السوء بالإحسان ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [فصلت: ٣٤]، ويتوقى الفواحش بالإحصان والإعفاف .. والأمثلة لا حصر لها أيضاً فى عالم المعانى.

ولكن .. ما هى الأسباب والوسائل التى يمكن أن يتخذها الإنسان لكى يتوقى شر الليل إذا أقبل، وشر السحر والسحرة، وشر الحاسد إذا حسد ؟

لا توجد أسباب أو وسائل سوى الاستعاذة بالله، فالإنسان لا يستطيع أن يمنع

إقبال الليل وظلمته .. تلك الظلمة التى تتعطل معها حاسة البصر ـ أو تكاد ـ وتتحرك معها ألوان من الشرور ما كان لها من ظهور فى ضوء النهار، كما لا يستطيع الإنسان أن يمنع الساحر من إعمال سحره، كذلك لا يستطيع أن يمنع الحاسد من إطلاق حسده .. ولا يستطيع أن يتخذ من الأسباب والوسائل المادية لمنع كل ذلك، وشر كل ذلك ..

إلا بالاستعاذة بالله سبحانه وتعالى، فيلجأ إليه ويلوذ به ويحتمى بحماه من هذه الشرور الثلاثة.

وبذلك نكون قد أجبنا ـ دفعة واحدة ـ على الأسئلة الثلاثة الأولى.

وتبقى الإجابة على السؤال الأخير .. هل هذه الشرور الثلاثة على سبيل الحصر أم على سبيل المثال ؟

نقول ـ والله أعلم ـ أن هذه الشرور الثلاثة على سبيل الحصر مع إضافة الوسواس الخناس الذى ورد ذكره فى سورة الناس كشر رابع .. لا سبيل لتوقى شره إلا بالاستعاذة بالله عز وجل .. ونعنى بذلك الشيطان الرجيم الذى نستعيذ بالله منه فى كل وقت وحين.

وعموماً .. فإن الاستعاذة بالله واجبة من كل أنواع الشرور سواء اتخذنا لها أسباباً لتوقيها أم لم نتخذ .. فالاستعاذة بالله عبادة .. وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، قالها الرسول عليه الصلاة والسلام لابن عباس ﷺ، ويقولها كل مسلم عند قراءة الفاتحة فى الصلاة وفى غيرها ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].